البدء، كحزب شيوعي عربي، وإنما ظهرت كتنظيم وطني تحرري يساري واسع وقف الشيوعيون العرب على رأسه.

إننا بذلك نكون قد وضعنا عملية نشوء العصبة في إطارها التاريخي المحدد وبالارتباط مع جملة التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية التي طرأت على بنية المجتمع العربي في فلسطين خلال سنوات الحرب الاخيرة. فالعملية التاريخية التي أدت الى نشوء العصبة لم ترتبط بعامل ذاتي تمثل بخروج الشيوعيين العرب من صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني، ورغبتهم بالعمل بصورة مستقلة عن رفاقهم اليهود فحسب، وإنما ارتبطت، ايضا، بجملة من العوامل الموضوعية التي كانت تختمر وتنضج داخل المجتمع العربي الفلسطيني، والتي أدت، في نهاية المطاف، الى ظهور عصبة التحرر الوطني كمنظمة جماهيرية واسعة، أعطت للنشاط الشيوعي، بين صفوف الجماهير العربية، زخما لم يشهده تاريخ فلسطين، منذ قيام الحزب الشيوعي الفلسطيني، بتبني سياسة التعريب في العام ١٩٢٤.

ان انتعاش الحركة العمالية العربية في فلسطين واتساع صفوفها، وتنامي الاتجاهات التقدمية بين صفوف المثقفين الديمقراطيين العرب، وانتصارات الاتحاد السوفياتي وصمود شعوبه في وجه العدوان النازي، وتزايد انتشار افكار الاشتراكية العلمية، وتشكل العديد من الحلقات الماركسية، إن ذلك كله قد ساعد على تشكل تيار وطني تقدمي واسع بين صفوف جماهير العمال والمثقفين العرب في فلسطين. وقد كان هذا التيار الوطني التقدمي العريض يسعى الى ايجاد الاشكال التنظيمية الملائمة لتأطير نضالاته وبلورة مواقفه، حين وقع الانقسام القومي في صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني. فقام الشيوعيون العرب، الذين خرجوا عن صفوف الحزب، بتحمل مسؤولية تأطير وتنظيم هذا التيار، ونتيجة لذلك نشأت عصبة التحرر الوطني في فلسطين.

من الطبيعي الّا يدخل، في إطار هذا البحث، تحليل أسباب الانقسام القومي الذي وقع في صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني، والذي ترك، حسب اعتقادنا، وكما أظهرت التطورات اللاحقة في فلسطين، تأثيرا سلبيا على مجرى الاحداث، وألحق ضرراً جسيماً بمصالح العمال والكادحين العرب واليهود. إن ما يهمنا هنا، تحديداً، هو تحليل حيثيات العملية التاريخية التي أدت إلى بروز تيار وطني تقدمي واسع داخل المجتمع العربي الفلسطيني، نشأت على قاعدته عصبة التحرر الوطني.

بقيت الحركة العمالية العربية الفلسطينية، التي كانت قد تلقت ضربة قاسية خلال احداث ثورة ١٩٣٦ – ١٩٣٩، في حالة ركود حتى نهاية العام ١٩٤١. واعتبارا من عام ١٩٤٢، شهدت فلسطين انبعاثا للحركة العمالية العربية، ونهوضا جديدا للحركة النقابية في البلاد. فاستأنفت جمعية العمال العربية الفلسطينية في حيفا نشاطها، وقامت بتأسيس فروع جديدة لها في مدن وقرى فلسطين الرئيسية. وقد لعب الشيوعيون العرب، اعضاء الحزب الشيوعي الفلسطيني، دورا رئيسيا في إحياء نشاط المنظمات النقابية التابعة للجمعية. والى جانب جمعية العمال العربية الفلسطينية، ظهرت، في مدينة حيفا جمعية نقابية جديدة، ضمت بين صفوفها، أساسا، عمال شركات النفط وعددا من المثقفين